٣- سلفي في قلعة الجبل

"كنت أعرف، لقد حبسني، كان قاسيا معي كما كان مع الجميع، لقد عافاه الله وأماته، لكنى أجد نفسى لكوني أباه من الواجب عليّ أن أترحم عليه وأدعو له الله".

محمد علي باشا

■ عباس حلمي الأول

قلعة الجبل ١٨٥٤م

استشاط ألما وغضبًا، أعتمر قبعة المنتقم، أراد أن يمحو ذكرى جده من كتب التاريخ، أخذ يدمر هنا ويعطل هنا ويتآمر هنا وهناك، يحاول القضاء على كل من هو قريب من أسلافه، حاول حتى القضاء على أفكارهم وراقه أذيتهم، حاول أولا استمالتهم، أغدق عليهم الأراضي، يريد أن ينجو بنفسه من هذه المؤامرات التي يراها تحاك أمامه، لكنه مزاجي ما لبث حتى أراد قطع دابر أقاربه، راقه الحكم فأرد تغيير نظامه، حاول أن يستأثر به ويورثه لأبنائه وأحفاده، دون أن ينظر إلى كل قواعد الحكم وحتميات التاج.

لا ينسى لقاءه بجده بعد وفاة غريمه إبراهيم، وهرولته من الحجاز التي نفاه عمه الغازي إليها أو ربما نسي حتما أنه من هرب إليها، اعتقد الجميع أنه سلفي وهابي فهو من تجرأ وتآمر وهرّب ابن زعيم الوهابيين من قبضة الباشا الكبير، قصة تشبه أقاصيص ألف ليلة وليلة، يرى جده وهو ساكن في أحد أركان الغرفة مصابًا بالخرف، ينظر إليه بكل قسوة، "**ها أنا الحاكم الجديد**"، لكن جده ينظر بقوة إليه ويذكره بنهاية عمه إبراهيم، "**كنت أعرف، لقد حبسني، كان قاسيًا معي كما كان مع الجميع، لقد عافاه الله وأماته، لكنى أجد نفسى لكوني أباه من الواجب على أن أترحم عليه وأدعو له الله**".

يكره ما فعله جده العظيم بتقربه من الفرنسيين، يكرههم ويمقتهم من كل تلابيب قلبه المحترق، يراهم مشعلي نيران الغزو على الدرعية وأمة الإسلام، أخذ يستمع إلى الإنجليز بكل حفاوة، أحبهم وأغدق عليهم بالكثير من الترحاب والمودة، أشاروا عليه بنفي كل ما يسبر الكتابة ومالك للمعرفة، يراهم قاتلي حكمه، نفى كل أتباع الغازي وأبيه، ولا يعلم أحد ما علاقة الأقباط بالأمر، نفاهم للسودان، نفى الكثير منهم حتى تأكلهم الملاريا وتفتك بهم الحمى، قضى على الفرنسيين في دولته، وخلعهم من أماكنهم الحساسة واستبدلهم بإنجليز، جعلهم يقتربون منه رغم أنه يهتف ويتشدق بأنه لا يريد التدخل الأجنبي، لكنهم عرفوا أن يستميلوه ويجذبوه إليهم، وعرفوا من أين تؤكل كتفه، أشاروا عليه بذلك القطار البخاري الذي يعبر به على أقاليم مصر شرقا وغربا وشمالا، بنوا خطوطًا للطرق ما أوسعها وأكبرها وأجملها، كره القاهرة وأراد أن يحتجب بنفسه أكثر فخالت عليه الفكرة ولمعت في عينه، طريق يوصله إلى معزله في ساعات قليلة.

يعرف ما يثرثر به الفرنسيون عنه، شككوا فيه وفي قدرته الجنسية وحتى قواه العقلية، لعنوه وسبوه، ودمروا سيرته لكنه لا يأبه لهم، فقط يحاول أن يدمر المتآمرين عليه حتى وإن كانت تجري في عروقهم نفس الدماء التي يمتلكها هو، ومن أقرب من عمته نازلي بنت الباشا الكبير؟ ضيق عليها الحياة حتى هربت للأستانة،

يخاف من كل ما يمت لجده بصلة، يخاف حتى من زوجاته الثلاث وحتى محظياته، الجميع يتآمر عليه، أنشأ الأمباشية حتى يحظى بالأمان، فدون أن يعي قضى على قطاع الطرق وسارقي الليل، أزاد الجاسوسية، لكنه أبدًا لا يهنأ ولا يستقر، دوما هناك أشياء تعكر صفو حياته، فقط وحدها الأموال تشعره بالسعادة، بدأ يجمع كل الأموال تحت يديه، أصابه الشره، الخزانة العامة كلها تحت تصرفه لكنه لا ينفق على شيء تفتقر إليه دولته، فقط ينفق على قصوره التي يشيدها في أماكن غريبة، وحتى وإن كانت على أنقاض معابد وتاريخ المصريين.

الحرمـــــلك

يدخل على حريمه، القصر مكتظ بالنساء، يترنح من الكحة والسعال، يصطدم بتلك الفتاة التي كان حظها بائسًا ويومها هذا أتعس الأيام، فبعد أن رأى هذا الدخان الأبيض الذي يتطاير من فمها في حلقات، اشتدت عليه الكحة أكثر وانقبضت روحه، فأمر حجابيه بخيط شفتيها، حاولت زوجته "ماهوش قادين" أن تثنيه عن الأمر لكن دون جدوى، أخذت تحدثه عن الألم الذي سوف ينتاب هذه المسكينة من غلق فمها للأبد،

حاولت أن تستجدي روح الشفقة في قلبه، أقسمت له بكل الكتب السماوية أنها لن تفعلها ثانية؛ لكن وا أسفاه هو دون رحمة حينما يتعلق الأمر بالمصريين أو حتى حريمه، فهو غريب الأطوار متناقض في ذاته يرى نفسه مخلص هذه البلاد من الوثنية والانحلال، يفرض على حاشيته الصلوات الخمس، كما فعل مع ابنه

"حيث إن ولدنا سعادة إلهامي[1] باشا وصل إلى حد البلوغ فيجب أن يباشر أداء الصلوات المفروضة علينا في أوقاتها؛ بناء عليه حينما يصل أمري إليكم اعتنوا بتشويقه وترغيبه في أداء الصلوات الخمس في أوقاتها ولا تتركوا له السبيل لإهمال وترك وقت منها"

ولم ينسَ شعبه أيضا فأمر بفريق يجوب المحروسة يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر كما تعلم في الحجاز، وهو من تزوج من أميرة نجد، طريق جديد يسلكه هو، أمر لم يعتده المصريون من قبل، ما دخل الحاكم بعلاقة الفرد بربه، أيريد أن يحاسبهم في الدنيا والآخرة.

[1] إبراهيم إلهامي: هو أمير بن عباس حلمي الأول من زوجته ماهوش قادين، وتزوجت ابنته الخديو توفيق.

شب وسط الحرملك وسط هؤلاء النساء اللاتي يتمايلن هنا ويتآمرن هنا، هو المدلل الذي لا ترد كلمته، لديه الحصن الذي يحميه جدته أمينة هانم، منذ وفاة أبيه طوسون وهو يفعل بحمايتها ما يشاء، كان له السلطة على كل نساء الحرملك، يعرف من أين تؤتى خبايا الأسرار، احتفظ بها في ذاكرته، أصبح شكاكًا يميل للعزلة والاحتجاب، أراد أن يهرب من هؤلاء المتربصين له، لا يريد أن يراه أحد وهو بهذه الحالة المتعسرة من المرض، هواجسه تنغص عليه حياته، عائلته دوما تحت منظار الاتهام، حاول قتل عمته نازلي سابقا لكنه لم يفلح.

الريـــــدانية

لا يعلم شريف باشا ما الذي يفعله ولي النعم في هذه الصحراء القاحلة، تلك الريدانية يجوبها يوميًا بحصانه الهجين الذي يمتطيه من ذلك الغمار العظيم، هو من جمع أحصنته وخيوله العربية من كل بقاع الأرض، ميله للعزلة جعله يهرب من المحروسة أو ربما أراد أن ينفذ وصية طبيبه بأن يحتسي شمس الصحراء ويمكث بها بعض الوقت، فهو دائما خائف من كل شيء حوله حتى وإن كان الهواء الذي يستنشق، لكنه سرعان ما أمره ببناء قصر له في تلك المنطقة، وليغيروا اسمها لتكون العباسية، بناه وغلا وأسرف في بنائه حتى أنه أصبح بألفي نافذة.

قصر بنها

١٤ يولية عام ١٨٥٤م

يشعر بالسعادة في معزله هذا، لا يحب أن يرى أحدًا، يخاف من كل شيء، يهتز من سماع نباح الكلاب، اختار غلامين جعلهما حجابه، اشتراهما من سوق العبيد، أراد أن ينعم ببعض من الراحة النفسية، يحاول الابتعاد بنفسه في هذا القصر الذي بناه على حطام المدن العظيمة، قصر فسيح واسع بأعمدة شاهقة، جمع كل مهندسي الإنجليز ليدشنوا له هذا القصر الفخم، يريد أن يبتعد عن كل مصادر الإزعاج ويصفو له المكان ويلقى نقاهته ويعيش في استجمام، هذه هي سعادته التي خيل إليه بها.

يدخل عليه الغلامان في منامته، واحد يكظم أنفاسه والآخر يطعنه بضربة تأتي بمنيّته، يسرعان بطلب حصانين من إسطبله ويصيحان بالحرس بأن يبتعدوا حتى يعبر ولي النعم لقصره بالحلمية، يحملانه ويضعانه في هودجه، يصلان لقصره ويضعانه في سريره الأخير.

تدخل إحدى مستولداته[١] تخاطبه، لا يستمع، تكرر النداء وتغير الألفاظ لا يتغير الأمر في شيء، تقترب منه فتصيح،

مات الحاج عباس، مات الحاكم.

---

[١] مستولدة بمعنى جارية

بين الحاشية تبحث عن حجابه، لا تراهم، اندثروا وتبعثروا، لا يُلمح حتى ريحهم، هربوا إلى عالم لا تدري أين!، تستجمع نساء القصر أنفاسهن، الدموع المصطنعة تملأ القصر والضمائر الكارهة تهنئ عمه سعيد، حان وقت اعتلاء العرش وأخذه من ذلك الراقد والمقتول.. النساء الماكرات يتحدثن، هذا ما يليق به، فعلتها نازلي، قبل أن يقتلها قتلته هي.

❊ ❊ ❊

■ ضريح عباس حلمي الأول